وهم يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، وهم يعلمون أن الذى يشيعونه هو باطل . إذن فهناك علم بينهم وبين نفوسهم ؛ وعلم آخر يقولونه للآخرين . وقوله الحق : « فلا تكونن من الممترين» أى الشاكين فى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق . هذا خطاب للنبى ﷺ ، ونعلم أنه إذا طلب المتكلم من المخاطب أمرا هو فيه فالمراد المداومة عليه والزيادة ؛ لأن هناك أموراً قد تزلزل الإيمان؛ لذلك يأتى الأمر بالثبات ، أو هو إهاجة له ، أو هو تسلية للمؤمنين إذ قال لهم لا تمتروا ولا تشكوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

وكلمة « تمت» تدل على أن المسألة لها بداية ولها خاتمة ، فما المراد بالكلمة التى تمت ؟ . أهى كلمة الله العليا بنصر الإسلام وانتهاء الأمر إليه ؟ أو هو تمام أمر الرسالة حيث قال الحق :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا . . ﴿٣﴾ ﴾

[سورة المائدة]

أو « كلمة ربك» المقصود بها قرآنه ؟ . ونرى أن معنى « تمت» استوعبت كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة ، فليس لأحد أن يستدرك على ما جاء فى كتاب الله حكماً من الأحكام ؛ لأن الأحكام غطت كل الأقضية . ولفظ « كلمة» مفردة لكنها تعطى معنى الجمع . وأنت تسمع فى الحياة اليومية من يقول : وألقى فلان كلمة طيبة قوبلت بالاستحسان والتصفيق . هو قال كلمات لكن التعبير عنها جاء بـ « كلمة» إذن « تمت كلمة ربك» المقصود بها المنهج الذى يشمل كل الحياة ، واقرأ قوله الحق :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ . . ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الكهف]

أهي كلمة أو كلمات؟أنها كلمة ولكن فيها كلمات . إذن لفظ«كلمة»تطلق ويراد بها اللفظ المفرد، وتطلق ويراد بها الكلام . والكلمة فى الأصل لفظ مفرد، أى لايكون معها لفظ آخر، ولكنها تدل على معنى، فإذا كان المعنى غير مستقل بالفهم؛ ويحتاج إلى ضميمة شىء إليه لنفهمه فهذا حرف، وأنت تقول : «فى»وهو لفظ يدل على الظرفية، إلا أنه غير مستقل بالفهم؛ لأن الظرف يقتضى مظروفاً ومظروفاً فيه، فتقول : «الماء فى الكوب» لتؤدى المعنى المستقل بالفهم . وكذلك ساعة تسمع كلمة «من»تفهم أن هناك ابتداء، وساعة تسمع كلمة«إلى» تعلم أن هناك انتهاء . وإن كان يدل على معنى فى نفسه وهو غير مرتبط بزمن فهو الأسم . وإن كان الزمن جزءاً منه فهو « الفعل» . أما «الكلام» فهو الألفاظ المفيدة .

وحين تسمع «سماء»تفهم المعنى، وكذلك حين تسمع كلمة«أرض»وهو معنى مستقل بالفهم . وحين تسمع كلمة«كتب» فهى تدل على معنى مستقل بالفهم ، والزمن جزء من الفعل، فكتب تدل على الزمن الماضى و«يكتب»تدل على الحاضر و«سيكتب» تدل على الكتابة فى المستقبل . إذن فـ «الكلمة» لفظ يدل على معنى فإن كان غير مستقل بالفهم فهو حرف . و«الكلمة»قد يقصد بها الكلام .

وقوله الحق : «تمت كلمة ربك»تعنى الكثير . فإن إردت بها القرآن فالمقصود هو كلمة الله . وكلام الله نسميه«كلمة»لأن مدلوله كلمة واحدة . انتهت وليس فيها تضارب، هذا إن أردنا بها القرآن، ولتفهم أن القرآن قد استوعب كل شىء، وكل قضية فى الوجود وأيضاً لم ينس أو بدّل فيه حرف؛ بل بقى وسيبقى كما أنزل؛ لأن الآفة فى الكتب التى نزلت أنهم كتموا بعضها ونسوا بعضها، وحرفوا بعضها، وكان حفظها موكولاً إلى المكلفين، ومن طبيعة الأمر التكليفى أنه يطاع مرة، ويعصى مرة أخرى . وإن أطاعوا حافظوا على الكتب، وإن عصوا حرفوها بدليل قوله الحق :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤) ﴾ [سورة المائدة]

و« استحفظوا» أى طلب منهم أن يحافظوا عليه ، وهذا أمر تكليفى عرضة أن يطاع ، وعرضة أن يعصى ، لكن الأمر اختلف بالنسبة للقرآن فقد قال الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الحجر]

فسبحانه هو من يحافظ على القرآن ، وليس ذلك للبشر لأن القرآن معجزة ، والمعجزة لا يكون للمكلَّف عمل فيها أبداً .

إذن فقوله الحق : « تمت كلمة ربك» المقصود بها أن تَطْمَئِن على أن القرآن الذى بين يديك إلى أن تقوم الساعة هو هو لن تتغير فيه كلمة ، بدليل أنك تتعجب فى بعض نصوص القرآن ، فتجد نصّاً مساويا لنص ، ثم يختلف السياق ، فيقول الحق :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة المدثر]

ومرة أخرى يقول سبحانه :

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة عبس]

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الإنسان]

فهذا لون ونوع من المتشابه من الآيات ليقول لنا الحق :

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة القيامة]

والحق يقول :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ
اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ
۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ
ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ
هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ [سورة المؤمنون]

وفي آية أخرى يقول :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ ﴾ [سورة المعارج]

وكل ذلك يدلك على أن كل كلمة وصلتك كما أنزلت ، وبذلك تكون كلمة ربك قد تمت . أو قول الله : « وتمت كلمة ربك » ليدل على أن كلمة الله هي العليا ، ولذلك تلاحظ أن « كلمة الله هي العليا » لم يجعلها الحق جعلاً ، وإنما جاءت ثبوتاً ، وسبحانه القائل :

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ .. ۝٤٠ ﴾ [سورة التوبة]

هذا السياق الإعرابي حصل فيه كسر مقصود ، والسياق في غير القرآن أن يقول : وجعل كلمة الله هي العليا ، ولكنه سبحانه يقول :

(وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا)

وسبحانه أراد بذلك أن نفهم أن كلمة الله هي العليا دائماً وليست جعلاً . وهذا دليل على أن كلمته قد تمت .

ونلحظ أن قول الحق : « وتمت كلمة ربك » تأتي بعد « أفغير الله أبتغي حكماً » ، واستقرىء موكب الرسالات من لدن آدم ، وانظر إلى حكم الله بين المبطلين

والمحقين ، وبين المهتدين والضالين ، إنه الحق القائل :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

والحاصب هو الريح التى تهب محملة بالحصى وكانت عقوبة لقوم عاد .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورةالعنكبوت)

وهم قوم ثمود ، يسميها مرة الصيحة ، وأخرى يسميها الطاغية :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

ومرة يخسف بهم الأرض مثلما فعل مع قارون : (فخسفنا به وبداره الأرض) .

وكذلك : (ومنهم من أغرقنا) .

وقد أغرق الله قوم فرعون وكذلك أغرق ـ من قبلهم ـ المكذبين لنوح . إذن كل قوم أخذوا حكم الله عليهم ، لكنك يا محمد مختلف عنهم وكذلك أمة محمد التى أصبحت مأمونة على الوصية ، وعلى المنهج ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

وبعد أن بعث الحق رسوله صلى الله عليه وسلم قال :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

إذن « تمت كلمة ربك » ، وهى الفصل النهائى :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا

﴿ لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [سورة الصافات]

وأنتم المنصورون لأنكم منسوبون إلى منهج غالب ، والنصر للمنهج الغالب يقتضى الإخلاص ، فإن تنصروا المنهج باتباعه ينصركم من أنزل المنهج ، فهو القائل :

﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١) ﴾ [سورة المجادلة]

وما قاله كان هو الواقع وما جاء به الواقع كان مطابقاً للكلام .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ..(١١٥) ﴾ [سورة الأنعام]

أى وافق الواقع الكونى ما قال الله به . وكيف كان الواقع صادقاً وعادلاً فى آن واحد ؟ لنفرض أنك أحضرت مدرساً خصوصيًا لولدك ، وصادف أنه هو الذى يدرس فى المدرسة وهو الذى يدرس لابنك ثم قلت له : أريد أن ينجح الولد فى الامتحان . ووعد المدرس بذلك ثم جاء الامتحان ونجح الولد ، فتكون كلمة المدرس قد صدقت . لكن هل هذا عدل ؟ قد يكون المدرس هو واضع الأسئلة ولّمح للولد بالأسئلة ، ويكون النجاح حينئذٍ غير عادل ، لكن كلمة الله تجىء مطابقة لما قال ، موقعها مطابق لما قال ، وهى كذلك عدل ؛ لأنه سبحانه أوضح الثواب والعقاب : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) . لأنه لا مبدل لكلمات الله ، ولا يوجد إله آخر يعارضه فله سبحانه طلاقة القدرة .

أما بالنسبة للبشر فقد علّم الله عباده احتياط الصدق فى كلامهم ؛ فأوصاهم :

﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [سورة الكهف]

لأن فعل ذلك غداً والإتيان به وإحداثه هو أمر يتعلق بالمستقبل الذى لا تتحكم فيه ، فاحم نفسك وقل : « إن شاء الله » ، فإن لم يحدث يمكنك أن تقول : لم يشأ

ربنا حدوث ما وعدت به ، وبذلك يحمى الإنسان نفسه من أن يكون كاذباً ويجعل نفسه صادقاً فلا يتكلم إلاّ على وفق ما عنده من قوانين الفعل وعدم الفعل ؛ لأنه عندما تقول : « أفعل ذلك غداً» . ماذا ستفعل غداً وأنت لا تضمن نفسك وحياتك وظروفك ؟! لكن الله إذا قال : « سأفعل» فله طلاقة القدرة .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾
[سورة الأنعام]

ومادامت الكلمات ستتحقق والحكم سيصدر فهذا دليل على أنه سبحانه سميع لما قالوه فى عدواتهم ، وعليم بما دبروه من مكائدهم ، وهو القائل من قبل :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ .. ﴿١٢١﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

أى ليعلموهم بخفاء ، فإن كان كلامهم ظاهراً فهو مسموع ، وإن كان بخفاء فهو معلوم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

و« من فى الأرض» المقصود بهم المكلفون ؛ لأنهم هم من يتميزون بالاختيار ولهم أوامر ونواه ، فما دون الإنسان لا أمر له ، و« أكثر» لا يقابلها بالضرورة كلمة «قليل» أو « أقل» ، وما دام القول هو : « أكثر» . فقد يكون الباقون كثيراً أيضاً ، وأمّا كثير فإنها ، تعطى له كميته فى ذاته وليست منسوبة إلى غيره ، ولذلك كنا نسمع من يقول : مكتوب على محطة مصر أو على « المطار» أو على « الميناء» ، يا داخل

مصر منك كثير ، أى إن كنت رجلاً طيباً فستجد مثلك الكثير ، وإن كنت شريرا فستجد مثلك الكثير أيضاً .

ويقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [سورة الحج]

فكل الكائنات مقهورة مسخرة ، وعند الناس انقسم الأمر ؛ لأن لهم اختياراً ، فراح أناس للطاعة وذهب أناس للمعصية ، فلم يقل الحق : والناس . بل قال «وكثير من الناس» ، ولم يقل الحق : وقليل حق عليه العذاب ، لكنه قال : « وكثير حق عليه العذاب» فهؤلاء كثير وهؤلاء كثير ، وإن نظرت إليهم فى ذاتهم فهم كثير ، والآخرون أيضاً إذا نظرت إليهم تجدهم كثيراً . ولماذا يقول الحق : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله »؟

« الطاعة» - كما نعرف - استجابة للأمر فى « افعل» ، والنهى فى « لا تفعل» إذا قال الحق للإنسان افعل كذا ؛ فالإنسان صالح لأن يفعل وأن لا يفعل ، وإن قال «لا تفعل» فالإنسان صالح أن يفعل ، وأن لا يفعل ، وإن كان هناك شيء لا تقدر عليه فلن يقول لك : افعله . والإنسان عادة حين يؤمر أو يُنهى إنما يؤمر وينهى لمصلحته ، فإن لم يوجد أمام مصلحة معارض من منهج إلهى فهذا من مصلحته أيضاً ؛ لأن الله أجاز له حرية الفعل والتَّرك . ويوضح الحق : من رحمتى أن جعلت لكم تشريعاً ؛ لأننا لو تركنا الناس إلى أهوائهم فسيأمر كل واحد من الذين لهم السيطرة على الناس بما يوافق هواه ، وسينهى كل واحد من الناس بما يخالف هواه ؛ لذلك نعصم هذا الأمر بالمنهج . حتى لا يتضارب الخلق ولا يتعاكس هواك مع هوى أخيك . ومن المصلحة أن يوجد مطاع واحد لا هوى له ، ويوجد منهج يقول للجميع « افعلوا كذا» و « لا تفعلوا كذا» وبذلك يأتى الاستطراق لنفعهم جميعاً . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ..(١١٦) ﴾ [سورة الأنعام]

فهناك أناس مؤمنون وهم أصحاب الفطرة السليمة بطبيعتهم ؛ لأن الخير هو الفطرة فى الإنسان ، وقد جاء التشريع لينمى فى صاحب الفطرة السليمة فطرته أو يؤكدها له ، ويعدل فى صاحب النزعة السيئة ليعود به إلى الفطرة الحسنة .

والذين يضلون عن سبيل الله ماذا يتبعون ؟ يقول الحق : (إن يتبعون إلا الظن) .

كل واحد منهم يظن أن هذا الضلال ينفعه الآن ، ويغيب عنه ما يجر عليه من الوبال فيما بعد ذلك .

و« الظن» - كما نعلم - هو إدراك الطرف الراجح ويقابله الوهم وهو إدراك الطرف المرجوح والظن هنا ، هو ما يرجحه الهوي :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

و« إن» - كما نعرف - تأتى مرة جازمة : إن تفعلْ كذا تجدْ كذا ، وتأتى مرة نافية ، مثل قوله الحق :

﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ .. ﴿٢﴾ ﴾ [سورة المجادلة]

أى : ما أماتهم ؛ فـ« إن» هنا نافية . وقوله الحق : « إن يتبعون إلا الظن» أى ما يتبعون إلا الظن . هم إما أن يتبعوا الظن وإمّا أن يخرصوا . (فالخارص) هو من يتكلم بغير الحقيقة ، بل يخمن تخميناً ، كأن ينظر إنسان إلى آخر في سوق الغلال ويسأله : كم يبلغ مقدار هذا الكوم من القمح ؟ . فيرد : حوالى عشرة أرادب أو اثنى عشر أردباً ، وهو يخمن تخميناً بلا دليل يقينى أو بلا مقاييس ثابتة ، أو يقول كلاماً لَيس له معنى دقيق .

فإذا اتبعت الناس فسوف يضلونك . لأنهم لا يملكون دليلاً علميًا ، ولا حقًا يقينيًا ، بل يتبعون الظن إن كان الأمر راجحاً ، ويخرصون ويخمنون حتى ولو كان الأمر مرجوحاً .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

وساعة ترى «هو» هذه فاعرف أنها تَرُدّ وتجيب على مايمكن أن يقال ، فهناك من يقول : أنا سوف أرى تصرفات فلان ، ولأنك من البشر فمهما علمت عنه فأنت محدود الإدراك ؛ لأنك سترى تصرفات فقط ، ولن ترى انفعالات قلبه وتقلبات عقله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الأعلم ؛ لأن الميزان كله عنده ، إنه يدرك الظاهر والباطن ، وهو سبحانه يقول هنا : «أعلم» وهناك « عليم » ، و«العليم» هو من يرى ظاهر الأمر ويحيط به ، لا الخافى منه ، أما الذى يرى الظاهر والخفى فهو أعلم .

ولذلك كان النبى ﷺ فى مسائل كثيرة يعامل الناس بعلانيتهم ، ويترك سرائرهم إلى الله . وعندما قتل مسلم رجلاً أعلن الإسلام ، سأله ﷺ لماذا؟ ، قال : لأنه أعلن الإسلام نفاقاً . فقال ﷺ : أشققت عن قلبه؟! .

وسبحانه وتعالى « أعلم » ؛ لأنه يعلم الظاهر والباطن ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ويقول الحق :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

ما الذى أدخل هذه المسألة فى هذا السياق ؟ لقد تكلم الحق عن أن هناك أعداء لكل نبى يلتمسون ثغرة فى منهجه ليتكلموا فيها ، وهذه هى مهمتهم التى هيأها الله لهم ، فحين يقولون الاعتراضات نجد المنهج يرد عليهم وبذلك تنتفع الدعوة إلى أن تقوم الساعة .

مثال ذلك نجد الجماعة الذين عارضوا رسول الله ﷺ فى الإسراء والمعراج ، فحين قال لهم : إننى أسرى بى إلى المسجد الأقصى وعرج بى إلى السماء فى ليلة واحدة ، التمسوا له ثغرة لينفذوا منها ويضللوا غيرهم وقالوا له : أتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟!! لكنْ أبو بكر الصديق قال : إن كان قال فقد صدق ، وهذا هو الإيمان الذى يحسن استقبال الأمر المخالف للنواميس . ويجادلون أبا بكر ، فيقول : أنا صدقته فى خبر السماء فكيف أكذبه فى ذلك ، ما دام قال فقد صدق ، وهذا كلام منطقى .

لكنّ المعارضين لرسول الله ﷺ قالوا : أتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ! فأعطى ﷺ لهم الأمارات ووصف لهم العير التى فى الطريق ، وغير ذلك من العلامات التى تجعل من الأمر حجة إلى يوم القيامة ، ولو مرّت مسألة الإسراء والمعراج من غير أن يعترض أحد من الأعداء ، لما وجدنا الحرارة فى تصديقها .

إننا نجد حاليًا من يقول : وهل من المعقول أنه ﷺ راح إلى بيت المقدس وجاء فى ليلة ؟ لا بد أن ذلك كان حلماً . لو لم يقولوا هم هذا ما كنا عرفنا الرد ؛ إنما هم قالوها حتى نعرف الرد ويظل الرد رادعاً إلى أن تقوم الساعة ، وهذه هى المهمة التى جعلها الله للأعداء ؛ لأنه ﷺ لو قال

لهم : إنني حلمت أني رحت بيت المقدس . أكان هناك من يعترض على أن يحلم النبي حتى ولو قال : إنه ذهب إلى آخر المعمورة إنه لا يجرؤ واحد أن يكذبه ، لكنهم ما داموا قد كذبوه ، ورفضوا تصديق الإسراء فهذا دليل على أنهم فهموا من الذهاب أنه ليس ذهاب رؤيا وإنما ذهاب قالب ، لقد فهموا عنه أنه قد انتقل بجسده من مكة إلى بيت المقدس ، ولذلك كذبوه ، وهذا التكذيب منهم ينفعنا الآن ، لنردَّ به على المكذبين المعاصرين .

إذن فوجود الأعداء يهيج القرائح التي يمكن أن نرد على أية شُبَهٍ يثيرها أي إنسان سواء أكان ماضيًا أم معاصراً .

والحق هنا يقول :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) ﴾ [سورة الأنعام]

هذه الآية لها قصة توضح كيف يحاول الأعداء اصطياد الثغرات لينفذوا منها ، وقالوا : يقول النبي لكم : إن الميتة لا يحل لكم أن تأكلوا منها ، وما تذبحونه بأيديكم كلوا منه ، والذبح لون من الموت ، هذه هي الشبهة التي قالوها ، وهي أولاً مغالطة في الأساليب ؛ لأن الميتة غير المذبوحة وغير المقتولة . فالمذبوحة إنما ذبحناها لنطهرها من الدم ؛ لذلك فالمناقشة الفقهية أو العلمية تهزم قولهم ؛ لأن هناك فرقاً بين الموت والقتل . فالموت هو أخذ للحياة بدون سلب للبنية ، إنما القتل هو سلب للبنية أولاً فتزهق الروح ويبقى الدم في الجسم . ثم هل يأخذ المشرع وهو الرب الأعلى الحكمة منا أو أن الحكمة عنده هو وحده ؟ .

وقد تبين لنا في عصرنا أن غير المؤمنين بدأوا في الاهتداء إلى أن الميتة فيها كل الفضلات الضارة ، واهتدوا إلى إزالة كل الفضلات الضارة من الحيوانات التي يريدون أكلها ؛ لأن تكوين جسم الحيوان يتشابه مع تكوين جسم الإنسان ، فهو يأكل ويهضم ويمتص العناصر الغذائية ليتكون الدم والطاقة ، وفي الجسد أجهزة تصفي وتنقي الجسم من السموم الضارة ، فَالكُلْية مثلاً تصفّي الدم من البولينا وغيرها ، ويسير الدم ليمر على الرئة ليأخذ الأوكسيجين ، وكل ذلك لتخليص الجسد من الفضلات الضارة ، وأوعية الدم في الإنسان والحيوان فيها الدم الصالح والدم

الفاسد ، والدم الفاسد هو الذى لم تتم تنقيته ، وعندما نذبح الذبيحة ينزل منها الدم الفاسد وغيره ، أى أننا ضحينا بالدم الصالح فى سبيل وقايتنا من الدم الفاسد . لكنها إن ماتت دون ذبح ؛ فآثار الدمين الاثنين موجودة . وكذلك آثار الفضلات التى كان يجب أن يتخلص منها ، وهذا ما نفعله فى هذا الأمر ، لكن هل لنا مع الحق سبحانه وتعالى تعقل فى شىء إلا فى توثيق الحكم والاطمئنان إلى مجيئه منه جلت قدرته ؟

كان جدلهم أنهم قالوا : أنتم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ، فأنتم تظنون أنفسكم أحسن من الله ، وهذا افتراء منهم . ثم إن الحيوان حين يموت لم يذكر عليه اسم الله ، لكن الذبيحة التى نذبحها نذكر عليها اسم الله ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يوضح : فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . أى غير الميتة وغير ما يذبح للأصنام .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

إنَّ تلقى أى حكم من الحق ، لا يصح أبداً أن نبحث عن علته أولاً ثم نؤمن به ، بل علينا بعد أن نثق بأنه من الله الذى آمنا به . علينا إذن أن نأخذ الحكم الذى أمر به الله .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وللآيتين - كما علمنا - سبب نزلتا من أجله وهو أن بعض المعارضين لرسول الله الذين يقفون من الدعوة موقف التكذيب والعمل على إبطالها والقضاء عليها ، كانوا يُشيعون عند المؤمنين إشاعات قد تفت فى عضدهم العقدى فعرضوا هذه المسألة وهى فى ظاهرها تشكيك . وهم قد عرضوا القضية بهذا الشكل غير المتسق ؛ لأن من الذى قتل ؟ لقد قالوا : إن الميتة قتلها الله ، فهل الله هو الذى قطع رقبتها ؟ وهل

ضربها الله على رأسها فأمات أصل إدارة الحياة وهو المخ ؟ هل صوّب شيئاً إلى قلبها؟ سبحانه جل وعلا منزه عن مثل هذه الأفعال البشرية ، فكيف يسمون الموت قتلاً ؟ إن تسمية الموت قتلاً هو الخطأ ، فقولهم : كيف تبيحون لأنفسكم ما قتلتموه أى بالذبح . ولا تبيحون ما قتله الله أى أماته ، فيه مغالطة في عرض القضية ، ويريد الله سبحانه وتعالى أن يضع عند المؤمنين مناعة من هذه الهواجس التى يثيرونها ؛ فقال :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) ﴾

وما معنى الذكر ؟ إنّ عدم تحديد العلماء المعنى المقصود بالذكر ، هو الذى أوجد بينهم خلافاً كبيراً . فسيدنا الإمام مالك يرى أنك إذا ذبحت ولم تذكر اسم الله سواء أكنت ناسياً أم عامداً فلا يصح لك أن تأكل من الذبيحة . ويرى الإمام أبو حنيفة : إذا كنت لم تسم ناسياً فكل مما ذبحت ، لكن إن كنت عامداً فلا تأكل ، والإمام الشافعى - رضي الله عنه - يرى : ما دمت مؤمناً ومقبلاً على الذبح وأنت مؤمن فَكُلْ مما لم تذكر اسم الله ناسياً أو عامداً لأن إيمانك ذكر لله .

ونقول : ما هو الذكر ؟ هل الذكر أن تقول باللسان ؟ أو الذكر أن يمر الشىء بالخاطر ؟ إن كنتم تقولون إنّ الذكر باللسان فلنبحث فى الحديث القدسى الذى قاله الله تعالى : « أنا عند ظن عبدى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم »(١) .

إذن فقد سمّى ربنا الخاطر فى النفس ذكراً وبذلك يصبح من حق الإمام الشافعى أن يقول ما قال .

لذلك أقول : يجب أن نحدد معنى الذكر أولاً حتى ننهى الخلاف حول هذه المسألة ، فليس من المقبول أن نقيم معركة حول معنى « الذكر » ؛ لأن الذكر وهو خطور الأمر على البال قد يصحبه أن يخطر الأمر على اللسان مع الخطور على البال ، وقد يظل خطوراً على البال فقط ، بدليل ما جاء فى الحديث السابق .

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى .

والمؤمن حين يجد أمامه أشياء كثيرة ، قد يوجد شيء جميل وآخر ليس له من الجمال شيء ؛ فالجاموسة أقل في الجمال من بعض الحيوانات التي حرم الله أكلها ، وأقبل المؤمنون على ذبح الجاموسة ليأكلوا منها ، ولم نسمع عن مسلم تقدم إلى حيوان حرم الله أكله ليذبحه ، لماذا ؟ لأن المؤمن يقبل على ما أحل الله ، وهذا الإقبال دليل على أنه ذكر في نفسه المحلل والمحرم وهو الله ، إذن اختياره حيواناً للذبح دليل على أنه ذكر الله في النفس أو في القول ، وبهذا نتفق على أن ذكر المؤمن يكون في قلبه قال أو لم يقل ، وينتهي الخلاف في هذه المسألة . إذن الإمام الشافعي أخذ بهذه المسألة ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما سئل عن أكل المسلم من ذبيحة لا يعرف من ذبحها وهل سمّى أو لم يسمّ ، أوضح لمن سأله : سمّ وكُلْ .

فالإنسان منا لا يحضر وقت الذبح دائماً ، ويكفيه أن يستحضر المحلل والمحرم ساعة الأكل . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : اذكروا اسم الله ، وسبحانه يعلم أنك تقبل على أشياء لتفعلها . وهذه الأشياء تنقسم إلى قسمين : قسم يمر على بالك قبل أن تفعله ، وقسم لا يمر على بالك ، بل تفعله تلقائيًا بدون ما يمر على البال ، ومثال ذلك الأفعال العكسية كلها التي يفعلها الإنسان إنها لا تمر على باله . فلو حدث أن حاول واحد أن يضع إصبعه في عين آخر ، فهذا الآخر يغمض عينيه تلقائيًا . ويختلف ذلك عن الفعل الذي تفكر فيه قبل أن تفعله . فالذي يفعل الفعل بعد أن يمر بخاطره هو فعل ذو بال . ولذلك أراد الرسول عليه الصلاة والسلام ألا يكلفنا عناء أو مشقة ؛ فقال :

« كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع »[1] .

والأمر ذو بال هو الأمر الذي يكون قد خطر على بالك أن تفعله أو لا تفعله . إذن فالله سبحانه وتعالى لا يكلفنا إلا عند الأمر الذي يمر على الخاطر ؛ لأنك حين تقبل على أي فعل فينفعل لك كما تريد ، إن هذا من عطاء الله لك ، وأنت حين تذبح عجلاً ، أو خروفاً ، وتتأمل أنت كيف يُقدرك الله على هذا الكائن الحي . وإنك لم تفعل ذلك إلا لتسخير الله كُلَّ الكائنات لك . فباسم الله تذبحه .

إذن هناك أمور كثيرة وأفعال ذات بال تمر عليك ومن حسن الأدب والإيمان أن

(١) رواه عبد القادر الرّهاوي في الأربعين عن أبي هريرة .

تقبل عليها باسم الله . ولذلك يخطىء بعض الناس حين يظنون أن الإنسان عندما يذبح حيواناً فهو يؤذيه . لا ، بل ذبح هذا الحيوان هو تكملة لمهمته فى الحياة ؛ لأنه مخلوق لهذا الهدف ومذلل له .

لقد قلنا سابقاً : إن هناك عجيبة من عجائب المزاولات الفعلية ، هذه العجيبة أنك حين تأتى إلى الحيوانات التى لم يحلها الله للإنسان ، كالحمار مثلا إذا ما تعرضت هذه الحيوانات إلى ما يميتها ، كأن التف حول عنقه حبل ، واختنق فهو يموت دون أن يمد رقبته إلى الأمام ، لكن الحيوان الذى أحله الله للأكل ؛ مثل الجاموسة أو الخروف أو العجل ، نجد الحيوان من هذه الحيوانات إن اختنق يمد رأسه إلى الأمام ، فيقول أهل الريف فى مصر : إنه يطلب الحلال ، أى الذبح . فلا يسمى ذبح الحيوان اعتداء عليه ؛ لأن الحيوان مخلوق لهذه المهمة .

إذن فمعنى كلمة « باسم الله » أى أننى لم أجترىء على هذا العمل إلا فى إطار اسم الله الذى أحل لى هذا .

بعد ذلك يقول الحق للمؤمنين : لا تسمعوا كلام الكافرين ، ويأتى السؤال الاستنكارى : « ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه » والمعنى : أى سبب يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؟ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، فما ذكر اسم الله عليه ليس من ضمن المحرمات التى نص الله عليها ، فربنا سبحانه هو من حلل وحرم . وإن قيل : ما دام قد حرم علينا بعض الأشياء فلماذا خلقت هذه الأشياء ؟

ونقول : إن من يفكر بمثل هذا الأسلوب يتناسى أن كل مخلوق من الحيوانات ليس مخلوقاً للأكل ، بل لكل حيوان مهمة . وإن ذبحت محرماً ، فقد يناقض هذا الفعل مهمته . فالخنزير ـ مثلا ـ حرّمه ربنا ؛ لأنك إن ذبحته فستذهب به بعيداً عن مهمته ؛ لأنه مخلوق كى يلم جراثيم الأشياء التى لا تراها العين ، فأنت حين تذبحه تخرجه عن مهمته . والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الإنسان ، ويعلم ما يناسبه من غذاء يولد الطاقة ولا يهدر الصحة ؛ لذلك حرم وحلل له ، وإياك أن تقول : إن الله سبحانه وتعالى لم يحرم إلا الشىء الضار ؛ فقد حرم شيئاً غير ضار لأنه يريد بذلك الأدب فى : « افعل هذا » و « لا تفعل هذا » . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

وفى حياتنا اليومية هل تقول : إن الذين يربون أبناءنا فى الجيش بالشدة ، يقسون على الأبناء ؟ لا ، بل إنهم يعدّونهم لمواجهة المهام الشاقة . وأن يتعوّدوا التزام الأدب والطاعة والانضباط ، فكذلك حلل الحق ما أراد وحرم ما شاء ليجعل الكون منضبطاً بقدرة الحكيم القادر ، فسبحانه يحرم أشياء مثل المخدرات ، ونحن فى بعض الأحيان نتناولها لنداوى بها الأمراض ، فلو أخذها الإنسان من غير مرض أو داع فإنها تسرق الصحة من بنية الإنسان ، وإن أخذها من بعد ذلك للعلاج لا تأتى بالمفعول المطلوب منها . ولذلك نجد من الأطباء من يسأل الإنسان قبل إجراء الجراحات الدقيقة إن كان المريض قد تناول المخدرات أو لا ، وذلك حتى يتعرف الأطباء على حقيقة ما يصلح له من ألوان التخدير .

وسبحانه وتعالى قد منع عنا تلك الألوان من مغيبات العقول ، لعلنا نحتاج إليها فى لحظة الشدة والمرض .

إذن فالحق سبحانه وتعالى قد ربط كل حكم من الأحكام التحليلية والتحريمية بـ « إن كنتم مؤمنين » ، ومعنى « إن كنتم مؤمنين » أى يا من آمنتم بالإله الحكيم الذى لا يأمر إلا بما فيه مصلحتكم ، امتنعوا عن مثل تلك الأفعال ، وإذا أقبلت على أى شىء مما أحله الله لك فأقبل عليه باسم الله ، وسبحانه وتعالى له أسماء علمها لنا ، وأنزلها فى كتابه ، وأسماء علمها لأحد من خلقه ، وأسماء استأثر بها فى علم الغيب عنده ، وهذه الأسماء هى صفات الكمال لله ، التى لا توجد فى غيره . وحين نستحضر الاسم الجامع لكل صفات الكمال نقول : باسم الله . وتنهى المسألة . وحين ناقش العلماء مسألة التحريم والتحليل ، قال بعضهم : إن الحق سبحانه وتعالى قال فى أول سورة المائدة :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

وهنا فى سورة الأنعام يقول :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

والمتنبهون من العلماء قالوا : إن سورة المائدة مدنية ، ومعنى كونها مدنية أنها نزلت

بعد السور المكية ، وسورة الأنعام مكية ، وهل يقول الحق فى السورة المكية « وقد فصل لكم ما حرم عليكم » فى السورة المدنية ؟ وبعض العلماء الذين أعطاهم ربنا نور بصيرة قال : لقد فصل لكم فى سورة المائدة وجاء أيضاً فى سورة الأنعام فقال :

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) ﴾ [سورة الأنعام]

أى فصل لك فى هذه السورة المكية . وقد يأتى واحد من المولعين بالاعتراض أو من خصوم الإسلام ويقول : لم تذكر الآية كل الأشياء المحرمة لماذا ؟

ونقول : القرآن هو الخطوط الأساسية فى المنهج ، وتأتى السنة بالتفصيل فى إطار :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [سورة الحشر]

والحق يقول هنا :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ .. (١١٩) ﴾ [سورة الأنعام]

واضطرار هو أمر ملجىء إلى شىء غير الأسباب الكونية المشروعة . ومعنى كونه مضطراً أنه يلجأ إلى شىء فقد أسبابه المشروعة كالذى يريد أن يأكل ليستبقى الحياة ، فإذا لم يجد من الحل ما يستبقى به الحياة فهو مضطر . ونقول له : خذ من غير ما أحل الله بالقدر الذى يدفع عنك الضرورة . فكل من الميتة بقدر الضرورة ولا تشبع .

والحق يقول :

﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ .. (٣) ﴾ [سورة المائدة]

والمخمصة هى المجاعة . إذن فالاضطرار هو شىء فوق الأسباب المشروعة

للعمل . والله سبحانه وتعالى يعطى الإنسان الرخصة فى أن يتناول ما حرمه إذا كان مضطراً .

﴿ إلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١١٩) ﴾

[سورة الأنعام]

والذين يضلون بأهوائهم بغير علم هم من أرادوا زراعة الشك فى نفوس المسلمين . ومعنى الضلال بالهوى أن تكون عالما بالقضية ، ولكن هواك يعدل بك عن مراد الحق من القضية . ولذلك يصف الحق رسوله ﷺ :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) ﴾ [سورة النجم]

وحين يقول الحق : « وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم » فمعنى ذلك أنه يوجد ضلال بغير هوى ، وهو عدم وصول الإنسان إلى الحقيقة ؛ لأنه لا يعرف الطريق إليها ، والضلال بالهوى أى أن تكون عندك الحقيقة وأنت عارف بدورها ولكنك تعدل عنها :

﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ..(١١٩) ﴾ [سورة الأنعام]

وساعة ترى مجىء متعلق بعد « يضلون» وهو قوله : (بأهوائهم) تقول كأن هناك ضلالاً بغير علم ، وهو غير مذموم ؛ لأن صاحبه لا يعرف الحكم فى القضية ، وهذا يختلف عن الذى يضل وهو يعرف الحكم ، فهذا ضلال بالهوى ، وهذا الفهم يحل لنا إشكالات كثيرة أيضاً . و« بغير علم » أى ليس عندهم علم بالقضية وأحكامها .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ ... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) ﴾ [سورة الأنعام]

وقد أفسح الله فى النص القرآنى لبعض خلقه الذين يعرفون المهتدى من غير المهتدى ، والكثير من الناس لا يعلمون المهتدى من غير المهتدى ولكن إن علموا فالله أعلم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

هذه تقنينات السماء التى تحمى المجتمع من بعضه وذلك فى ألا تقع عين أحد على مخالفة من أحد ، وإذا وقعت عينك على مخالفة من غيرك تكون المخالفة مما يدرك لكنها ليست كل الفساد فى المجتمع ؛ ففساد المجتمع يأتى من أشياء كثيرة لا تقع تحت دائرة الإدراكات . وهناك أشياء تكون فى منابع النفس البشرية التى تصدر عنها عوامل النزوع ؛ فقبل أن يوجد إثم ظاهر يوجد إثم باطن ، والإثم الباطن سابق على الإثم الظاهر . والتقنينات البشرية كلها تحمينا من ظاهر الإثم ، ولكن منهج السماء يحمينا من فساد ظاهر الإثم وباطن الإثم .

ويوضح لنا الحق الفرق بين تقنين البشر للبشر وتقنين الإله ، فسبحانه رقيب على مواجيدكم ووجداناتكم وسرائركم ، فإياكم أن تفعلوا باطن الإثم ، ولا يكفى أن تحمى نفسك من أن يراك القانون ؛ لأن قصارى ما يعمل القانون أن يمنع الناس من أن يتظاهروا بالجريمة ويقترفوها علانية ، والفرق بين تشريع السماء وتشريع الأرض أن تشريع الأرض يحمى الناس من ظاهر الإثم ، ولكن تشريع السماء يحمى الناس من ظاهر الإثم وباطن الإثم ، وباطن الإثم هو أعنف أنواع الإثم فى الأرض .

وبعض أهل الاكتساب فى الشر برياضتهم على الشر يسهل عليهم فعل الشر وكأنهم يفعلون أمراً قد تعودوا عليه بلا افتعال .

و « كسب » ـ كما نعلم ـ تأتى بالاستعمال العام للخير ، و « اكتسب » تأتى للشر لأن الخير يكون فيه الفعل العملى رتيباً مع كل الملكات ، ولا افتعال فيها ، فمن يريد ـ مثلاً ـ أن يشترى من محل ما فهو يذهب إلى المحل فى وضح النهار ويشترى . لكن من يريد أن يسرق فهو يرتب للسرقة ترتيباً آخر ، وهذا افتعال ، لكن الافتعال قد يصبح بكثرة المران والدربة عليه لا يتطلب انفعالاً ، لأنه قد أضحى لوناً من